

## الشخصية السيرية وعلاقتها بالمكان المتغير

### في «مقتل بائع الكتب» لسعد محمد رحيم

كريم أميري<sup>١</sup>، محمد جواد پورعابد<sup>٢\*</sup>

١. طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خلیج فارس (بوشهر)

٢. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خلیج فارس (بوشهر)

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٧/٠٣/١٧ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٧/٠٨/٠٥

### الملخص

توفّر للروايات العراقية الصادرة بعد ٢٠٠٣ م فضاء تسجيلي يعتني بإشكاليات الإنسان وهواجسه من شتى أنواع العنف مثل القتل على الهوية وغيره، وفي هذا السياق جاءت رواية "مقتل بائع الكتب"، رائعة القاص العراقي، سعد محمد رحيم، لتمثّل الواقع وتنوّه بتلك الإشكاليات، وقد منح صاحبها الشخصية والمكان مكانة مائزة، وأدرجهما في علاقة تناغم مستمرّ، فصارت روايته لوحة بانورامية تعكس شريحة من عراق ما بعد التغيير، وتعرض جانباً من مكابدة الإنسان ومعاناة المكان.

تفيد الدراسة من المنهج الوصفي - التحليلي الذي يساعدها في التركيز على الشخصية الرئيسة، وإمطاة اللّغز عن الدقائق الفنية والجمالية لخلقها وإبرازها من شتى الجوانب؛ ومن ثمّ الكشف عن طبيعة علاقتها بالمكان، والدلالات التي تمخضت عنها. سُميت الشخصية المحورية "سيرية" نظراً لهيمنة سيرتها على المتن الروائي، واستحوذها على مساحة كبيرة من النصّ؛ مثلما سُمّي المكان "متغيراً" تبعاً لتغيّر ملامحه إثر الظروف الطارئة من انقلاب وحروب واحتلال.

من الألفاظ أنّ القاصّ يستغلّ التقنيات الفنية في تقديم الشخصية الإشكالية، محمود المرزوق، وربطها بالمكان المتغير. المرزوق شخصية محورية/نمطية حضرت في أماكن عدّة وتمثّلت فيها، أهمّها المفتوح والمغلق؛ ولوشيح القرابة بين المكان والشخصية جاءت الأخيرة متكاملة مع المكان، مثلما جاء المكان هو الآخر مواكباً لسيرة الشخصية ومسيرتها.

**الكلمات الرئيسية:** سعد محمد رحيم، مقتل بائع الكتب، الشخصية السيرية، المكان المتغير.

## ١. المقدمة

أخذت الرواية منذ نشوئها تنوء بإشكاليات الإنسان وهواجسه، ولأنّها أداة فنيّة راحت تعبر عن أوضاع المجتمع وتؤرّخها بصورة أدبيّة. وفي هذا السياق أصبح السرد العراقي المنجز بعد ٢٠٠٣ م مرثي للمكان والإنسان اللذين أصبحا لا قيمة لهما في أجواء من الاقتتال الطائفيّ والمناطقيّ، حيث أفرزت الأزمات الناجمة عن الاحتلال نتاجات روائية هامة ذات فضاء تسجيليّ لا يعنى بتفاصيل الأحداث العاصفة بحياة الإنسان وطوبوغرافيّة المكان فحسب بل راح يكشف عن فروق شاسعة بين ما كانت عليه حياة الشخص من شعور بالأمان، وما آل إليه الأمر اليوم من فزع ورعب ومداهمات داخل البيت نفسه، وبين ما كان عليه المكان في أرض الحدث/بغداد والمدن الأخرى من جمال وانسجام وما صار عليه، واجتاز حدّه فيه، من خراب ودمار. ومن هذه الروايات على سبيل المثال وليس الحصر: "الحفيدة الأمريكيّة" لإنعام كجه جي (٢٠٠٨ م)، و"فرانكشتاين في بغداد" لأحمد سعداويّ (٢٠١٣ م)؛ كما صدرت في العام ٢٠١٦ م "فاليوم عشرة" لخضير فليح الزيديّ، و"ما لم تمشه النار" لعبد الخالق الركابي، و"مقتل بائع الكتب" لسعد مجد رحيم. جاءت الأخيرة لا لتعكس شريحة من حياة عراق ما بعد الاحتلال فقط بل لتبني عالماً فنيّاً يشغل بفاعليّة جماليّة تدحض قبح الحرب ودمويّتها، وتعكس عبثيّة الواقع العراقي، وأزمة البطل الذي يجد نفسه وحيداً، معزولاً أمام قوى غامضة، هي ذاتها القوى التي أفقدت المكان هويّته ووجوده. يهدف هذا البحث معتمداً على المنهج الوصفي - التحليليّ إلى الكشف عن علاقة الشخصية الرئيسيّة بالمكان المتغيّر، ويطمح إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف تبلورت الشخصية المحوريّة في هذه الرواية؟ وأيّة أمكنة واكبت مسيرتها وسيرتها؟ وما صور المكابدة لدى الشخصية الرئيسيّة والمكان؟ وكإجابة أوليّة نفترض أنّ الشخصية الرئيسيّة تحضر في الرواية بأبعادها الخارجيّة والاجتماعيّة والنفسيّة، وأنّ الكاتب جعلها سيريّة وغير تقليديّة وممثّلة لجيل، ومتغيّرة بتغيّر المكان، وعبر عن معاناتها مثلما أفصح عن مكابدة المكان قبل الاحتلال وبعده.

## ١-١. خلفيّة البحث

اهتمّت الدراسات النقديّة بثنائيّة الشخصية والمكان في الروايات العالميّة والعربيّة، وكثيراً ما تناولت كلياً منهما بمعزل عن الآخر أو درستهما إلى جانب العناصر الأخرى، وقليلة هي البحوث التي

جمعتهم تحت سقف واحد؛ ومن الرسائل الجامعية التي عاجلت هذا الجانب؛ "بناء الشخصية والمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي"، رسالة ماجستير للطالبتين فلة قارة وليندة لكحل، مقدمة لجامعة منتوري- قسنطينة (٢٠١١م)؛ توصلت الباحثتان إلى أنّ الشخصية متكامل ولها أبعاد جسميّة ونفسية، وسلّطت الكاتبتان الضوء على المكان حيث تجاوز كونه مجرد دكور للأحداث، فتحول إلى محاور حقيقيّة في الرواية. و"شعريّة الشخصية والمكان الروائي في (عائد إلى حيفا) لغسان كنفاني (من البنية إلى الدلالة)"، مذكرة ماجستير للطالب محمد جودي، جامعة الجزائر ٢ (٢٠١٢م)؛ ومن نتائجها أنّ غسان يجمع بين الواقعيّ والتخييليّ في بناء معالم الشخصية والمكان في الرواية. ومن المقالات: "أثر المكان في تحديد ملامح شخصية البطل في رواية (الطريق) لنجيب محفوظ و(الطريق) لعبد الحليم ابراهيم (دراسة موازنة)" لسلافه صائب خضير (٢٠٠٦م)، لوحظ في النتائج أنّ الروائيين تمكّنوا من إبداع طرائق جيّدة لتوضيح مكان البطل وأهميته في بناء الرواية، وكان نجيب محفوظ أكثر اقتداراً في عمله كلّه. و"طبيعة التلازم بين الشخصية الروائيّة والحيز المكانيّ، رواية الثبر لإبراهيم الكونيّ أمودجاً"، لعكازي شريف (٢٠١٣م) حيث ألقى الباحث في بحثه أنّ الكوني اعتمد على شخصيات قليلة في روايته وعلى الرغم من قلة الشخصيات في الرواية بالمقارنة مع الروايات العربيّة، فإنّ هذا الاقتصاد في الشخص نابع من كون الحيز فقيراً.

وميزة هذه الدراسة في محاولتها الكشف عن العلاقة التناغميّة بين الشخصية والمكان والصلات بينهما في مكابدة تداعيات الظرف الطارئ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهي المحاولة الأولى من نوعها في دراسة الشخصية والمكان في هذه الرواية، وهي في الأصل رواية تُراجع من منظور نقديّ يهتمّ ببنائها للمرّة الأولى وفقاً لما قدّر للباحثين الاطلاع عليه.

## ٢. سعد محمد رحيم: سيرة ومنجز

ترعرع سعد محمد رحيم باجلان (١٩٥٧/١٨/٢٠١٨م) في أحضان عائلة كردية تسكن ناحية السعدية التابعة لقضاء خانقين ضمن محافظة ديالى. وأقام في بعقوبة/مركز المحافظة، وسكن بغداد، وتوفّي في السليمانية. أصدر أكثر من مجموعة قصصية في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته. حصل على شهادة بكالوريوس اقتصاد من كلية الإدارة والاقتصاد من الجامعة المستنصرية. عمل في حقل

الصحافة، ودرّس في الثانويات المهنية، وكان عضواً في اتحاد الأدباء والكتاب منذ عام ١٩٨٧م. له كتب متنوّعة، وسبع مجموعات قصصية، وثمانى روايات. حصد عدداً من الجوائز العراقية والعربية؛ أهمها جائزة "الإبداع العراقي"، و"البوكر" العربية لفئة الروايات غير المنشورة ٢٠١٦م. كما دخلت روايته "مقتل بائع الكتب" القائمة القصيرة للبوكر العربية ٢٠١٧م.

يبحر بنا الكاتب في هذه الرواية في عدة أماكن، وتدور أحداثها بين بعقوبة وبغداد وبراغ وباريس. وتجري أحداثها وفق نمط الرواية البوليسية، وهي ليست من هذا النوع. وتبدأ من لحظة ميتاسردية يتصل فيها شخص مجهول طاعن في السنّ بالصحفيّ/الراوي "ماجد البغدادي" عارضاً عليه مبلغاً مالياً ضخماً مقابل أن يقوم الأخير بتأليف كتاب كما لو كان «سيرة ذاتية» عن الكنديّ "محمود المرزوق"، يكشف فيه عن حياته وملابسات مقتله قبل شهر في شارع الأطباء وسط بعقوبة لأسباب غامضة؛ المرزوق شيخ سبعينيّ عاش أيام عمره الأخيرة في سرداب يعتاش فيه على بيع الكتب القديمة. يقبل ماجد العرض، فيذهب إلى بعقوبة بدافع الفضول لتمتدّ مهمته الاستقصائية شهرين، طفق فيهما يجمع المعلومات عن القتل عبر محاوره بعض أصدقائه ومعارفه، وعقد الصلات وتبادل الإيميلات معهم؛ ويظفر بدفتر "يوميات الخراب" الذي دوّن المرزوق فيه انطباعاته لما قد طرأ بعد السقوط ٢٠٠٣م.

كما يجد رسائل وقصاصات، وصور فوتوغرافية؛ ولغرض وضع القارئ أمام مشهد سينمائيّ يقوم الراوي باستعراضها عبر تركيب يعتمد الصورة والوثيقة لإنضاج الحكمة وخطابها. ويتحرّى كلّ ما يخصّ سيرة الضحية وفقاً لوظائف "فلاديمير بروب"<sup>١</sup> في البناء الحكائيّ، إذ تقتزن هذه الوظيفة، وحسب التمثيل السردية، بتحفيز فاعلية القيام بوظيفة التحريّ؛ فمن هذه المصادر وغيرها تتكشف أمام الصحفيّ والمتلقّي شظايا من شخصية المرزوق؛ ولكن حقيقة الرجل تبقى غامضة أمامه رغم انكشاف سبب مقتله المثير للجدل والخاطيء! والأهمّ عدم تمكّنه من التعرّف على الشخص المهرم والمجهول، ذلك الذي أراد منه كتاباً يحكي عن صديقه المغدور.

1. Detective
2. Vladimir Propp

### ٣. مصطلحات البحث

#### ٣-١. الشخصية السيرية

تطرق الروائي لسيرة الشخصية المحورية/محمود المرزوق وذكر تفاصيل حياته على نحو جعل سيرته تستحوذ على مساحة كبيرة من النص، فضلاً عن إيعاز في حوار أحد مساعدي الراوي بضرورة تثبيت عبارة "السيرة" بجانب مفردة الرواية على الغلاف مع صورة مؤثرة؛ وعليه تمّ نعت هذه الشخصية في المقال بـ "السيرية".

#### ٣-٢. الشخصية الإشكالية:

هي التي تظهر دوماً تصادمها مع القيم الموروثة البائرة أو مع الواقع، فلا تستطيع الائتلاف معه، فتعيش منطقة معزولة عنه (إبراهيم، ١٩٨٨م: ١١٠).

#### ٣-٣. المكان المتغير:

تركز الدراسة على العراق باعتباره المكان المتغير لكنها تشرك خارجه في هذا التغيير نظراً لتغير ملامح المكان بدءاً بالانقلاب الستيني ومروراً بحقب ذات مؤثرات ثقيلة وقائمة، هي الحرب مع إيران، وحربي الخليج فضلاً عن الحصار القاتل والمؤلم، ومثله الغزو الأميركي وتداعياته الأخطر، كل ذلك يعني تدفق سيل من المحن، وانجراف لحياة الشخص. وأمام تراكم المحن والعجز عن تجاوزها وعدم إمكانية تغيير مسارها، ثمة من لا يجد بداً سوى تغيير المكان بشكل فردي تاركاً إيّاه للعامة متحرراً من أثره المباشر عليه بعد أن يظهر له في شتى صورته، لهذا يصبح تركيز النص على هذه الصور من خلال صيرورة عزم البطل على الخروج من مكانه.

#### ٤. المكان في الرواية

يملك المكان قيمة عالية في الروايات العالمية؛ تجده مثلاً في "الشيخ والبحر" (١٩٥٢م) لإرنست همنغواي، و"العطر" (١٩٨٥م) لباتريك زوسكيند، و"إحدى عشرة دقيقة" (٢٠٠٣م) لباولو كويلو. وفي الروايات العربية ترى المكان سيّداً في الكثير من الروايات؛ فمثلاً عند نجيب محفوظ في "القاهرة الجديدة" (١٩٤٥م)، و"خان الخليلي" (١٩٤٦م)، و"زقاق المدق" (١٩٤٧م)، وثلاثية

"بين القصرين" (١٩٥٦م)، و"قصر الشوق" (١٩٥٧م)، وأيضاً "الكرنك" (١٩٧٤م)؛ وهي أسماء لأماكن موجودة يمكننا العودة إليها في الواقع الفعلي. كما يشع المكان في "المصايح الزرق" (١٩٥٤م) لحنا مينة، وكذا في "البيت الأندلسي" (٢٠١٠م) لواسيني الأعرج.. إلخ.

أما الرواية العراقية فأطلت بواكير الشعور بالمكان فيها «مع ظهور رواية "النخلة والجيران" (١٩٦٥م) لغائب طعمة فرمان؛ إذ كان التغيير الاجتماعي السبب في تغيير المكان ومفرداته ومن ثمّ تغيير دلالاته» (الحري، ٢٠٠٣م: ١٦). وبعد ٢٠٠٣م استثمر الروائيون طاقات التصوير السرديّ في معاينة المكان العراقيّ المتغيّر، وقد امتلك بعضهم قدرة هائلة على التعامل مع فائض الدمار الذي لحق بالمدن/الأماكن، وغدت كلّ رواية تحتضن نسقها في التعامل معه، وليشكّل الفضاء دوره في النسيج السرديّ ترى، مثلاً، في "مقتل بائع الكتب" وأخواتها انشغالاً بالعيانيّ للمكان المتغيّر.

#### ١-٤. علاقة الشخصية بالمكان

تعتبر علاقة الإنسان بالمكان علاقة وجوديّة، إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا في حيّز مكاني ينتمي إليه، ويحركه ويتحرك فيه، وانطلاقاً من هذه الصلة التي تبدأ منذ طفولة المرء وتتطور وتتعمق مع الوقت، يبني الإنسان رؤيته إلى العالم والأشياء من حوله. يرى إدوين موير<sup>١</sup> أنّ «العالم الخياليّ لرواية الشخصية يقع في المكان» (١٩٦٥م: ٦٢). وعليه نرى سعداً يمسك بأول خيط ليوصل المكان بالشخصيّة في عنوان الرواية نفسه؛ فمن معاني "مقتل" أنّه اسم مكان لحدوث فعل القتل، وقد جرى هذا الفعل في مكان مفتوح/الطريق العام، و"بائع الكتب" اسم للشخص الذي يبيع الكتب، والمرزوق بما أنّه كان يبيع الكتب القديمة بثمن بخس في السرداب، فهذه المهنة تثير ابتداءً دلالة العوز، وقلة الحيلة؛ وقد استعمله الكاتب ليبيّن ملامح الشخصية، وبروي جزءاً مهماً من سيرتها الروائيّة: «كيف لشخص مثل محمود المرزوق، فنّان وكاتب عاش سنوات عديدة في براغ وباريس، وجاب أوروبا وربما بعضاً من مدن شمال إفريقيا أن يعيش شيخوخته في مكان كهذا» (مُجرحيم، ٢٠١٧م: ٤٣). وهكذا يُدخل رحيم المكان والشخصيّة في مختبره التخيليّ السرديّ، ويُقوّلهما معاً عبر أنساق عدّة كالاسترجاعيّ مثلاً، ويحشد كلّ الإمكانيات والتقنيات في مسار المتن والحدث الروائيّين، بما فيها الأسلوب البوليسيّ، في التحريّ والتقصيّ، وكذا التكرار،

1. Edwin Muir

والمناقشة<sup>1</sup>، بتوظيف أسلوب أكثر من مدونة في المتن، والكولاج<sup>2</sup> باستعمال المذكرات اليومية، والصُّور الفوتوغرافية، والرسائل ليسجل مسيرة تنقل الشخصية بين الأماكن معتبراً تنقله هذا واضطهاداً في مسيرة حياته الشائكة ردة فعل لانفراد المكان المتغير بالبطولة وكذا هامشية الشخصية، وتغيير مسار حياتها الخاصة في الدرجة الأولى، فضلاً عما كان يلجأ به في خياله الجامح؛ و«في الحياة حين تبحث عن مكان تأوي إليه أو تحتمي فيه تلجأ إلى الخيال الذي يتعاطف مع الكائن الذي يسكن المكان المحمي فيجعله يعيش تجربة الاحتماء بكل تفاصيل الأمان والحماية الدقيقة» (باشلار، ١٩٨٤م: ١٣١). ويوضح أنّ هجرة المرزوق كانت في الأصل هجرة معكوسة، فمن المدينة الكبيرة/بغداد إلى الصغيرة/بعقوبة أي من النهر الأسطوري/دجلة الخير إلى نهر يهرز، وخريسان في الضاحية؛ ومن ثمّ إلى أوروبا، ومنها عائداً إلى بعقوبة؛ حركة دائرية معاكسة لتيار الحياة أو قل: انتكاسة واضحة.

جعل الكاتب عملية الاستقصاء لحياة الشخصية ومقتلها عملية بحث لحال مدينة؛ وبعقوبة بوصفها مكاناً للأحداث، دالة على وطن بأكمله. وعبر هذا الوصف لبعقوبة/المكان، يمكن تعرية القضايا المخبئة عن أعين الناس والمستورة في أذهانهم، قضايا مفادها أنّ الإنسان يتعرّض للخطف والسرقة في وضوح النهار، وأنّ المثقف عرضة ليس لسهام التهميش والإقصاء والإبعاد القسري فحسب، بل إلى القتل المتعمد، ومثله المكان فقد يطاله الدمار ليل نهار.

تحيلنا القراءة النقدية على أنواع المكان في النصّ الروائي، وبناءً على ما جاء به "يوري لوتمان"<sup>3</sup> نذكر الأمكنة المتحركة أولاً ثمّ تليها المغلقة والمفتوحة حسب الترتيب، وبالاعتماد على ما أتى به "باشلار"<sup>4</sup> نتطرق إلى دلالات المكانين المألوف والمعادي.

## ٢-٤. الأماكن المتحركة

### ١-١-٤. القطار

يُعتبر القطار من الأماكن المتحركة، ومن المقرر أنّ يتهج الشخص عندما يركب القطار، ولكنّ

1. Metafiction
2. Collage
3. Yuri Lotman
4. Gaston Bachelard

المرزوق يحسّ بالنفور من ركوب القطار. معنوياً يرى أنه ركب القطار الخطأ في حياته «صعدت القطار الخاطيء منذ ثلاثين سنة» (مُدرّجيم، ٢٠١٧: ٩٦)؛ هذه كناية، ولكنّها تعبير مأساويّ عن النصف من الحياة الفاشلة؛ وفعلاً ركب ثلاثة قطارات: الأوّل قطار الموت الذي أخذه إلى السجن الصحراويّ. والثاني التشيكي الذي التقى فيه بناتاشا «مصادفة في قطار ما، انطلق من براغ إلى تبليتسه» (المصدر نفسه، ١٣٠). والثالث الفرنسي الذي جمعه بجانيت «بالقطار ذهبنا إلى نيس» (المصدر نفسه، ١٦١). وعند مقارنتك القطار العراقي بالقطارين الغربيين قل: أين الثرى من الثريّا! إذ كان في الأوّل يشبه كلباً أجرب يجرجر، وفي اللفظة "جرجر" إجماء بمعاداته للمكان، ولكنّه في الثاني والثالث كان مرتاحاً بصحبة عشيقته، وكان المكانان أليفين.

إنّ استعادة الروائي لحادثة "قطار الموت" تعكس وعيه بتعالق ما هو سياسيّ بما هو ثقافيّ، فقطار الموت صورة السلطة، أو نموذجه لسردنة تاريخها الداميّ، والذي كان توصيفاً لوجود الشخصية ضمن معارضيتها، بدءاً بالسجن «كان قرارهم أن نموت.. وقُرتت في دخيلتي أن أحياء.. ولا بدّ من أن أحكي عن هذا كلّ.. في مكان آخر» (المصدر نفسه، ١٤١)، ومروراً بهروبه ومنفاه أي استبدال المكان بأخر ملائم لأحلامه المكبوتة؛ وفي التعبير إجماء بمعاداة المكان له، فقد بيّن نفوره منه، وما هذه المعاداة إلّا نتيجة لما تمارسه الأنظمة الفاشية والشمولية في تحويلها المكان إلى ما يشبه السجن، بل هو السجن بعينه.

#### ٢-١-٤. الطائرة

تُعَدّ الطائرة من الأماكن المتحرّكة التي تجلب القلق للكثيرين الذين يركبونها لأوّل مرّة؛ والمرزوق ركبها ستّ طائرات، هرب في واحدة من بغداد إلى براغ، ومن براغ إلى باريس، وعاد من باريس إلى براغ، ومنها رجع إلى باريس؛ وعند عودته إلى الوطن ركب من باريس إلى بيروت، ومن بيروت إلى عمّان. لكنّه لم يتحدّث عن وضعه في كلّ هذه الرحلات سوى عن واحدة شعر بالقلق فيها وهي لم تكن الأولى من نوعها، فقد هرب على متنها من براغ إلى باريس وكان قلقاً ينتابه عدم الاطمئنان، وقد أوجس منها خيفة؛ والخوف يشي بمعاداة المكان؛ فانعكس ذلك الرعب على الشخصية، وفقدت الإحساس بالأمان؛ قال: «حتّى وأنا في الطائرة المحلّقة فوق الغيوم لم أطمئن» (المصدر نفسه، ١٣٣). تبين من لفظة (حتّى) أنّ الشعور بعدم الاطمئنان كان يرافقه طيلة أيام تشرّده، وأنّ التخوّف والتطير كانا يصطحبانه باستمرار.



### ٣-٤. الأماكن المغلقة

#### ١-٣-٤. الشقة/الغرفة

لأول مرة في بغداد «وهو طالب بكلية الآداب استأجر غرفة في نزل بمنطقة الحيدرخانة، لم يكن يقضي فيها سوى ليلة أو ليلتين في الأسبوع» (المصدر نفسه، ٢٠٢). وبدل المذاكرة كان يعاشر البغي، ولأته في الأصل وغد برداء مثقف كان يألف مثل هذه الأمكنة، ففي المكان دائماً تبرز هوية الشخص بعدها الاجتماعي والثقافي وحتى البايولوجي فالإنسان يدون دلالته وانطباعاته؛ وعليه يرى المرزوق أنّ «المكان لم يدهر، ودائماً، من غير وجود المباغي» (المصدر نفسه، ٣٤). وسكن غرفة في فندق الرشيد في بغداد. وفي براغ سكن شقة بصحبة ناتاشا، كما كان معها في شقة في تيليسطة، وقد عبّر عن سعادته وألفته للمكانين بقوله «لبتنا في ذلك الحوضن الدافئ، هل أقول الرحم الدافئ تسعة أشهر» (المصدر نفسه، ١٧١). ولكن سرعان ما تتلاشى أوامر الألفة فيصبح المكان معادياً ساعة تلاحقه السلطة «خلعوا الباب واندفعوا إلى الداخل واقتادوني... وليلاً أرجعوني إلى الشقة من غير أن يفسروا لي مغزى هذا الإجراء الغريب. وحين وصلنا الشقة دخلوا معي وكانت ناتاشا هناك لم ترحب المكان». (المصدر نفسه، ١٣١). وقال عن باريس «استأجرت شقة في الحي اللاتيني وجعلت منه ملاذي ومختري.. غير أنني بقيت غير متوافق مع عالمي» (المصدر نفسه، ١٥٦). واضح أنّ المكان جزء من عالمه فلم يتوافق ولم ينسجم معه؛ وكان مع جانب في مرسيليا، في غرفة في فندق أكاسيا «هذه الساعة الموعودة، المرسومة بماء الفضة على صفحة القدر.. كتنا في مرسيليا، في غرفة» (المصدر نفسه، ١٦٥). وبالرغم من كون الغرف والشقق أماكن مغلقة ومن المفترض أن تجلب له الضجر لكنه كان سعيداً بجانب جانيت.

#### ٢-٣-٤. السجن

ذلك المكان الذي يفرض على الإنسان فيسلبه حريته ويقيّد رغباته، ولقد «شكل السجن بوصفه عالماً مفارقاً لعالم الحرية مادة خصبة للروائيين في التحليل وإصدار الانطباعات والتي تساعد في فهم الوظيفة الدلالية التي ينهض بها السجن كفضاء روائي معد لإقامة الشخصيات» (بحراوي، ١٩٩٠م: ٥٥). كانت بدايات المرزوق مع الاعتقال: «اعتقلوني مرتين قبل أن أهاجر إلى براغ» (محمد رحيم، ٢٠١٧م: ١٤٢). ثم اقتيد ليحبس في سجن "قصر النهاية" في بغداد: «هناك في المعتقل تعرّض المرزوق لتعذيب شديد» (المصدر نفسه، ٩٣). ونقل منه إلى سجن "معسكر الرشيد". وبعد شهرين

وتحديداً في شباط ١٩٦٣م، تمّ نقله بما يعرف بـ "قطار الموت" إلى سجن "نقرة السلطان"، وهو من أقدم السجون في العراق، ويُعتبر الأشهر بعد سجن "أبوغريب"؛ يقع جنوبي شرقي صحراء السماوة في محافظة المثنى ناحية السلطان، وهي منطقة صحراوية نائية بالقرب من الحدود السعودية. يتخذ المكان شكلاً جديداً بما يشبه قلعةً منعزلة ذات ثلاثة طوابق توطنت فيها أمراض خطيرة، وجوارها مقبرة يدفن فيها كل من يموت من السجناء. أسس المكان على يد القوات الإنكليزية المحتلة في عشرينيات القرن الماضي ليتلقف في غياهبه المظلمة كل معارض سياسي. ما إن ينتقل البطل من مكانه الاعتيادي حتى يصبح المكان الطارئ معادياً للشخصية، فيتم الصراع من حيث انسجام البطل وتلائمه مع المكان الجديد؛ الحاج منصور الهادي، يروي ما مرّ به صاحبه المرزوق في السجن: «ضربه شرطيّ ضخم حتى أدمى فمه.. لم أره يضرب أحداً قط.. أوسعوه ضرباً.. تركوه في الشمس مربوطاً إلى عمود.. مثل كلب أجرب» (المصدر نفسه، ١٠٥). هذه المقاطع السردية توحى بعمق المعاناة التي ألمت بالشخصية لحظة تواجدها في ذلك المكان المغلق/المعادي؛ وتحمل الشخصية للضرب يعني صبر البلاد/الأمكنة، والناس/الشخصيات أيام الظلم والاستبداد الذي مارسه بحفهم السلطات الفاشية. ومن تأثير المكان على الشخصية أنه سلب منه ثلاثة أشياء: «الأول؛ إيمانه الكليّ بالحب بعد أن تزوّجت حبيبته عادة.. الثاني؛ ثلاثة أرباع إيمانه بموهبته فتاناً.. الثالث؛ نصف إيمانه باليسار فكراً وتنظيمات» (المصدر نفسه، ٩٥).

للأماكن الواقعية وقعها المؤلم في نفوس العامة، والكتّاب خاصة؛ عندما يوثق سعد حادثة السجن، فإنّه يذكرنا بما فعله بعض الشعراء مثل مظفر النواب، والرواة من أمثال برهان الدين الخطيب في روايته "الجسور الزجاجية" (١٩٧٥م)، وأحمد الباقري في "ممر إلى الضفة الأخرى" (٢٠٠٥م)؛ وكان القصد من وراء ذلك أن يبقى سجن "نقرة السلطان" شاخصاً لدى الأجيال، لما كان يمثله هذا المكان من قساوة على الشخصيات. وفي براغ لم تك حالة محمود بأفضل فيه، فقد تعرّض للجريرة والاعتقال؛ يروي ما حدث له فيقول: «اقتادوني شبه عارٍ، معصوب العينين إلى زنزانة باردة» (المصدر نفسه، ١٣١).

### ٣-٤-٣. السرداب

ما إن يلحظ الراوي السرداب حتى يقول مستغرباً: «كيف لشخص مثل محمود المرزوق... أن يعيش شيخوخته في مكان كهذا» (المصدر نفسه: ٤٣). وفي وصفه الدقيق للمكان قال: «خطونا

في ظلام السرداب... كان جزءاً من الطابق التحتي... للعمارة... خطونا إلى الداخل فزكمتنا رائحة الرطوبة والغبار.. طالعنا فوضى مربعة.. فوضى الكتب والأثاث والأشياء الأخرى... كانت الإضاءة شحيحة شاحبة... في مساحة تبلغ أكثر من عشرين متراً مربعاً» (المصدر نفسه: ٤٣). هذه الصورة ذات الملامح الخارجيّة تفصح عن ازدياد المكان والفوضى داخله وكلّما كان يسبب النفور ويدفع بالشخصيّة لتشعر بالملل، إذ كان كلّ ما فيه يوحي بالضيق الذي يجعل الشخصية تحسّ بالتغيّر المكاني، «فكلّما زاد التشويش في المكان، زاد شعور المرء بأنّه لا فائدة من عمل شيء، وهنا تواجهنا حلقة شريرة أو سلّم حلزوني، حيث تؤدّي الفوضى إلى إرهاق الإرادة، ويؤدّي إرهاق الإرادة إلى فوضى أكثر» (ولسون، ١٩٧٢م: ١١٧). استطاع الكاتب أن يصف المكان بدقّة لاصقاً ذلك الوصف بحالة الشخصيّة؛ «فالأشياء والأثاث تمثّل دوراً شعرياً عند أصحاب الرواية الجديدة، إذ تقوم على شعور إيجابي لكونها مرتبطة بوجود الإنسان، وإنّ وصفها هو في حدّ ذاته وصف الأشخاص؛ والأشياء تساعد على شرح المسائل التجريدية، التي لا يدركها المتلقّي إلا إذا وضعنا أمام ناظره الديكور وتوابع العمل ولواحقه» (بوتور، ١٩٨٦م: ٥٣). وعلى الرغم من أنّ المكان كان يضمّ مكتبة في نفس الوقت، لكنّ هذا لا يغيّر من الوضع شيئاً فقد كان المرزوق يحسّ بالوحدة فيه؛ لأنّه مكان يمتاز بضيق جغرافيته، وخير دليل على ضديته وصفه له على أنّه قبو ذو فضاء مظلم يحتم عليه الصمت المتوالد والوحدة؛ ذات يوم دامه الجنود الأمريكيان فقال لكبيرهم «أنا أشدّ الناس عزلةً في هذه المدينة.. كأنك تسأل ضفدعةً مستوحدةً عن أسماك القرش» (محمد رحيم، ٢٠١٧م: ٥٤). والسرداب يعني به الكاتب الوعي الباطني للمتقف البعقوبيّ أولاً، والعراقيّ ثانياً، والعربيّ ثالثاً، والكوبيّ رابعاً.

#### ٤-٣-٤ . المستشفى

مرض المرزوق ذات مرّة في فرنسا فأخذه صديقه، أندريه إلى المستشفى؛ فأفصح عن كراهيته للمكان بقوله «لا أطيق المستشفيات، هي مثل دوائر الحكومة في العراق، مثل السجون، مقبضة، كنيية، موحشة» (المصدر نفسه، ١٦١). وهكذا عقد بهذه العبارات مقارنة بين المكان داخل العراق/وخارجه، وانتقد بلسان لاذع وضع الدوائر الحكوميّة في العراق، فهي الأخرى أمكنة معادية مثل السجون.

## ٤-٤. الأماكن المفتوحة

## ٤-٤-١. المدن

هي في الرواية عبارة عن أمكنة مفتوحة تجري فيها الأحداث أو مساح تجريدية للجرمة تعرّف من خلالها على الخلل السياسي، وتمثّل في أربعة أماكن هي بعقوبة وبغداد وبراغ وباريس:

## ١. بعقوبة

وهي المكان الأول، تصبح عبئاً على الشخصية بسبب ظروفها يوم كان المرزوق في عزّ شبابه، كان قد سُجن في بعقوبة في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته؛ فاضطرّ إلى الانتقال إلى مكان ناءٍ، وبعد عودته من باريس ١٩٨٩م، كان ينظر إلى بعقوبة بإيجاب «مدينتنا التاريخية العريقة قربتنا الكبيرة العامرة بأهلها.. نظيفة كصحراء.. مبرّاة» (المصدر نفسه، ٣٢). وما إن جاء الاحتلال الأمريكي حتّى أنتج الوضع صورة قائمة للمدينة كان أثرها البالغ على الصعيد الاجتماعي الحاضر يجعلها مختلفة تماماً عن ماضيها. فانبرى المرزوق/الشخصية يوثق واقع المكان الذي مرّ بواحدة من أصعب صفحات حياته وأشدّها عتمةً في زمن الموت المجانيّ والقتل على الهوية، ورمي الجثث في المزابل، استكمالاً لصفحات سود أخرى مماثلة مرّ بها على امتداد ما يقرب من نصف قرن، أفقدت البلد خيرة مثقفيه «بعقوبة بسبب أحداث العنف خسرت أكثر من نصف مبدعيها: بعضهم هجرها وبعضهم أعتيل فيها وبعضهم مات كمداء» (المصدر نفسه، ٩). شاهد المرزوق ما حدث يوم ١٢ نيسان فكتب: «المدينة بلا حكومة» (المصدر نفسه، ٤٧)؛ وفي ١٥ نيسان رأى بأمّ عينيه المدينة خالية من الشرطة والجيش والحكومة واليانكي والحراس والجيش الشعبي والرفاق الحزبيين! وسجّل حدوث عدّة انفجارات حصلت في مناطق متفرقة من المدينة «حدث انفجار في فلكة العنافة.. وآخر قرب السوق المركزي وثالث في شارع المحافظة ورابع في بعقوبة الجديدة وخامس في حيّ التحرير وسادس في الكاطون...» (المصدر نفسه، ٢٢). هذه الصورة المسرودة بالانفجارات داخل المدينة، توهم القارئ بمدى واقعيتها وكأّتها وقعت حقيقة وليس خيالاً من حيث إلقاء الضوء على عدّة مناطق مثل (الكاتون)، و(فلكة العنافة) وغيرها من الأماكن، ومن ثمّ أعطت بدورها للمتلقّي انطباعاً عن أنّ المكان مفتوح وعلى الرغم من انفتاحه أصبح مغلقاً يثير التوتّر ويزرع الخوف في نفوس الناس.

يأتي الروائي إلا أن يذكّر على لسان الشخصية بالأحداث الأليمة التي حصلت في بلده

وبالواقع الذي فرضه المحتل على حاضر مسموم بالحقد والتعصب والفكر المتطرف، وقاده إلى مدينته التي ألمه أن تتغير فتصبح «لوحة سريرية رسمها فنان دعوي.. قصيدة دادائية كتبها شاعر نصف موهوب متبحر.. قطعة من الهراء... حلم ممزق إلى أشلاء» (المصدر نفسه: ٤٨)؛ ويعني بهذا التمزق حالة الشعب/الشخص، وبالصفات "متبحر ودعوي" المحتل بعينه، يوم ناب عنه المرزوق في تدوين كل ما يجري بعيد السقوط، سقوط جلب موجة من الاضطراب واختلال النظام، والفوضى العارمة، وجاء بالأبيدي الخفية فراحت ترمي بالبلد وأبنائه في دوامة الصراع فيذهب ضحيتها الأبرياء، ويختار بعضهم الهجرة هروباً من هذا الوضع المأساوي.

وبعقوبة بوصفها مكاناً للأحداث هي حال وطن عاش أيام الفتنة الطائفية بعد تفجير مرقد الإمامين وما تلاه من عنف دموي، وقد «شبهها بعضهم في أثناء الاقتتال الأهلي وانتشار الميليشيات المسلحة بقندهار الأفغانية» (المصدر نفسه: ١١٥). هذا وصف لجميع المدن وفي طلبعتها بغداد يوم رافقت العصابات القوات الأمريكية في حضورها فسيطرت على البلاد، وغيّرت الإنسان وفرضت أخلاقها عليه وعلى المكان فاكتمسب المكان بعده الاجتماعي الجديد. «العصابات المسلحة تكاد تسيطر على الوطن» (المصدر نفسه، ٥٧). والمرزوق حين يصف ما يراه، إنما يصف نفسه عبر ذلك. ويمكن القول إن من كان يصف هو سعد، أو هي بعقوبة تصف نفسها من خلال سعد! بل سعد هو «بعقوبة، وعليه فإن من يتحدث في الرواية بعقوبة ولكن على لسان ابنها سعد.. فهي تصف نفسها من خلاله وتدلّ القارئ على كل مكان فيها» (غريب، ٢٠١٧م).

## ٢. بغداد

سكنت عائلة المرزوق بغداد قديماً ثم هاجرت بعد ذلك إلى بعقوبة، ولكن ذكرياته تبدأ بأيام الدراسة في بغداد، وكان يحس بالألفة للمكان فقد دخل الكلية واستأجر غرفة يجلب إليها البغلي، والأهم أنه أحب فتاة جامعية، كان يركب معها الحافلة، ويدخل معها السينما، وكان مرتاحاً بصحبتها؛ لكن سرعان ما «حدثت المشكلة الأولى يوم رآها أحد أقرانها في سينما روكسي ببغداد» (محمد رحيم، ٢٠١٧م: ٩١). فأراد أبوها أن تترك الدراسة، فطلب يدها، وقبل أن تتم طقوس الخطوبة حدث انقلاب عسكري واضطربت أحوال البلد وبدأت المعاداة للمكان، واشتدت الضدية عندما اعتقل وأدخل السجن، فابتعد عن المدينة وانتهت الذكريات الجميلة، فإن «معايشة مكان جميل ونقل تجربته يثير في الذهن مباشرة هناءة ذلك المكان، بينما سلسلة الإحباطات التي

يعانيها المرء في مكان ما تجعل من هذا الأخير مكاناً عدوانياً» (كحلوش، ٢٠٠٨م: ٢٧). وبعد عودته من باريس أصبحت لديه مذكرات فقد اكتفى بتسجيل الحوادث بدءاً بلحظة سقوط التمثال، فكتب «ساحة الفردوس أجمل، لا شك، من غير ذلك التمثال، لكنّ من يضمن أيّ شيء بوجود البيانكي؟» (مُجد رحيم، ٢٠١٧م: ٤٦). يتّضح من خلال هذه العبارات أنّ المرزوق لم يكن معترضاً بل كان لديه انطباع، لكنّه في نفس الوقت يعلق بشأن المدينة، ويستطيع القارئ الكشف عن حالة القلق التي كان يعيشها عبر حديثه وحركاته، وفي ذلك دلالة على فقدان الشخصية الاستقرار النفسي في داخلها، وهو شعور بالنفور للمكان، مكان تغيّرت ملامحه فصار غريب الأطوار بظهور الغرباء/الأمريكان. كما زار المرزوق بغداد ذات نهار بعد زويدة ٢٠٠٣م، وعند عودته وصفها بالموحشة «سألني كاميران عادل كيف وجدتها؟ [يعني بغداد].. قلت له: تبدو موحشة كسجن صحراوي» (المصدر نفسه، ٥٢). يستفاد من هذا القول أنّ بغداد لم تك بأفضل من سواها من المدن/الأماكن. وهذا استرجاع يوحى بأنّ مرحلة ما بعد السجون، والهروب والمنفى تساوي ما سبقها، وأنّ داخل العراق وخارجه سواء.

### ٣. براغ

بعد المضايقة التي واجهها بعيد خروجه من سجن النقرة، نجح المرزوق في الهروب من العراق، فكان عليه أن يختار آنذاك مكاناً يطمئن فيه على نفسه، ويجد جواً يلائم ما يدور في دخليته من رؤى وأفكار فولّي وجهه شطر براغ لاجئاً، وهناك عشق "ناتاشا" الروسية، والتقي بالرفيق "حسين اللّامي" فقاده إلى "أحمد مسعود"، فاختلف الأخير معه يوماً، وربما هو من تسبّب في اعتقاله واعتقال عشيقته. ولبراغ الأثر الطيّب والسيء في نفس الوقت على الشخصية «سيستعيد إيمانه بالحبّ حين يعشق امرأة روسية بيضاء.. وسيحافظ على الربيع المتبقي من إيمانه بموهبته.. وسيخسر النّصف الآخر من إيمانه بتنظيمات اليسار» (المصدر نفسه، ٩٥). وبعد اعتقال ناتاشا عاش حياة القلق والشكّ حتّى لحظة اعتقاله «عشت جواً كافكويّاً بامتياز؛ جوّ القلق والخوف والشكّ واللّاقين» (المصدر نفسه، ١٣١). كما تعرّض نفسياً للإحباط إذ قدم براغ ظناً منه أنّها آمنة تحتويه وفكره الماركسي، لكنّه وجد المكان متغيّراً نتيجة فقدان الفكر اليساريّ مصداقيّته عبر تجربة الاتّحاد السوفيّاتيّ، وأقول نجم الاشتراكية في العالم؛ فهرب إلى باريس.

#### ٤. باريس

ينظر المرزوق إلى المدن التي خيبرها خارج العراق على أنها آثمة، وهذا واضح في حديثه المسجل ذي الاستعارة التهكمية: «المدن الآثمة.. تلك التي تشعشع بالفن، وتتوفر فيها كتب آثمة، وتزهر في حدائقها وبيوتها وشوارعها نساء آثمات» (المصدر نفسه: ٣٢). إذن الإثم صفة مشتركة بين الإنسان والمكان؛ ويرمز إلى أثر الإنسان/الشخص على المكان/باريس بذكره المهاجرين من جزر الواقواق «قبيلة لا قيمة عالية لإنتاج أفرادها الفني سوى أن وجودهم في المدينة يضفي نكهة وتنوعاً عليها» (المصدر نفسه، ٣٣). كانت فرنسا اللبرالية الرأسمالية موطن الحرية الموهوم، والجنة الواهية على الأرض بعد تبدد الفكر اليساري وانهايار معسكره؛ لكن واقعا يشبه واقع براغ حيث كان صادماً له إذ احتجزه الفرنسيون فور وصوله من براغ «احتجزي في مطار باريس بعد نزولي من الطائرة في أول مرة أدخل فيها فرنسا» (المصدر نفسه، ١٤٢)؛ فوجد «أن الزمان غير الزمان والحال مختلف.. لم يكن في مقهى فلور، البيركامي، وسيمون دي بوفوار، وجان بول سارتر.. رأيت فقراء حقيقيين، عرباً، وأفارقة، ولا تبيّن.. وتلمّست في أكثر من مناسبة نظرة الازدراء العنصرية عند بعضهم» (المصدر نفسه، ١٥٧). ومن تأثير المكان على الشخصية زرع بذور الحسّ بالاغتراب في داخلها «كنت أهرب من ذكريات بعقوبة وبراغ إلى سماوات الفن.. غير أنني أخفقت في محاولة النسيان، وخفت شغفي بولوج قصور الثقافة.. وسنة بعد سنة نما فيّ حسّ المنفى؛ الشعور بأنك فقدت مكانك، وإلى الأبد» (المصدر نفسه، ١٨١). ومن الطبيعي أن من يكتشف حقيقة وهم كهذا، يلف المكان متغيراً، وسيشعر بديب الغربة وتغلغلها في دخيلته.

#### ٢-٤-٤. المقاهي

تعدّ المقاهي مكاناً خاصاً لتبادل الآراء ووجهات النظر حول القضايا المختلفة، وعادة ما يعكس فضاء المقهى الحالة الاجتماعية للناس ويكشف من خلال الحوارات التي تتمّ بينهم عن مستواهم الفكري ورؤيتهم للواقع. والرواية تحكي عن دخول المرزوق مقهى في مطعم الجمهورية، وفي ركن أحد المقاهي كان المرزوق «مسحة مبهرة من الغموض، وما كان يقوله من آراء غريبة أو ساخرة يتناقله الآخرون كما لو أنها آراء قديس، وهكذا وجد من جاره في ألوان لباسه وفي تسريحته، وكيفية وضعه الغليون في طرف فمه» (المصدر نفسه، ١٩٥). ونرى تأثير الشخصية على المكان عبر

مجاراة شباب بعقوبة له. كما كان يرتاد بعض المقاهي في براغ بصحبة ناتاشا أو بعض معارفه؛ يقول أحدهم «وأنا معه بمقهى في براغ، مدّعياً أنه بوغت بها واقفة» (المصدر نفسه، ٢٠١). وفي باريس التقى بمصريّ في مقهى فقال عنه: «مُجَّد المنيّاويّ التقيته في مقهى وهو يخطّ اسكيتشاً على ورقة بيضاء» (المصدر نفسه، ١٥٨). وكان المكان أليفاً وقد أحسنّ فيه بالسعادة. ولكنّه دخل مقهى فلور، فبدأ له المكان غير مألوف وليس كما كان يتوقّعه «لم يكن هناك في مقهى فلور، البيركامي، وسيمون دي بوفوار، وجان بول سارتر.. رأيت فقراء حقيقيّين» (المصدر نفسه، ١٥٧). وهذا وصف دالّ على تعيّر المكان لخلوّه من المفكرين الماركسيين والوجوديين، وقد صار ذا جوّ اعتياديّ يرتاده الفقراء الأفارقة والآسيويّون وغيرهم؛ وكذا الوضع كان في مقاهي بغداد بعد ٢٠٠٣م، فقد دخل مقهى الشابندر، فراح يصفه بعد أن رجع إلى بعقوبة قائلاً «في مقهى الشابندر كان الوضع أشبه بالسيرك بعروض هزليّة وبعض المثقّفين مثل دبكة عجائز كلّ له ادّعاءاته» (المصدر نفسه، ٥٢)؛ واضح أنّ المكان لم يعجبه؛ لأنّ صورته تشوّهت/تغيّرت، فراح يرثي لحال الشخصوس؛ لأنّهم ليسوا من أهل الثقافة الحقيقيّين. إنّ صورة المقهى، وقد تحوّل/تغيّرت إلى مثال للمكان المعادي، تكتنز ثنائيّة ضديّة قوامها وجوه جديدة جلبت الخواء الداخليّ للمكان أو أضفت على أعرافه القديمة وقيمه السائدة مسحة باهتة، ذلك أنّ مرثادي هذه الأماكن يصدق عليهم الافتقار القيميّ.

### ٣-٤-٤. المنافي

السلطة المخزيّة للمكان تحرّب بالتناظر علاقة الإنسان الذي يسكن المكان بمكانه؛ هذا الانفصال/الاغتراب هو المقدّمة ليفكّر الإنسان بالمغادرة، بالبحث عن المنفى. اختيار المنفى هو عمليّة تبادل للأمكنة. وثمة شخصيّات تحاول الهرب إلى ملاذات لا تفقه عنها شيئاً. وفي أحيان كثيرة هي لا تعرف على وجه التحديد مرادها.. هنا يمكننا التكلّم عن فقدان البوصلة والتّيّه. وهو ما اثبتت به الشخصيّة لحظة غادرت مكانها غير الآمن وشعرت بأنّه ما عاد يخصّها إلى آخر/براغ بانتظار استعادة صورة مكانها الأوّل، وهو ما جسّده المرزوق في مرحلة نفيه عبر تعاطفه مع ناتاشا؛ قال لها: «أنا منفيّ، هارب بجلدي منذ زمن بعيد» (المصدر نفسه، ١٦٨). كلّ ما حصده في المنفى كان طيف لناتاشا وقد بات لا يفارقه، طيف هو ذكرى لجرح لا يندمل ومرّ السنين،



حيث لاقت حتفها على يد القوات التشيكية بعد لقاءها به وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً لينقذها، حادثة أعادت المرزوق إلى أجواء ما تعرّض له في العراق. هنا يجري الروائي نوعاً من التوازي بين ما تعرّض له المرزوق في العراق، وما تعرّضت له عشيقته في براغ، وما حدث للروائي نفسه في بعقوبة، فقد رحل عنها هو الآخر يوم جعل المنفى/بغداد داخل البلد نفسه «صديقي الروائي، سعد محمد رحيم دلّني عليك.. كان لمدة ستة عشر عاماً في بعقوبة قبل أن يهدم نصف منزله بانفجار عبوة ناسفة في ٢٠٠٦ فغادر المدينة» (المصدر نفسه، ٩). وهذا التوازي يشي بدلالات منها أنّ البلاد أصبحت منافي، وأنّ العالم تسربل بالتهميش والضياغ، فلا الشرق بقي شرقاً ولا الغرب غرباً، ولا الشيوعية، ولا الرأسمالية، ولا القومانية الاشتراكية، ولا حتى الإسلاموية يمكنها إنقاذ الإنسان/الشخص من محنته والمكان من دماره.

## ٥. النتيجة

جعل الكاتب الشخصية المحورية تنفرد بكونها بؤرة الاهتمام على امتداد زمن الرواية دون أن تنافسها أيّة شخصية أخرى، فأصبحت سيرية غير تقليدية، ومثّلة لجيل ضمن دراما تراجيدية، كما صيّرنا البراديعم الذي يمكن أن يختصر كلّ وجع هذا الجيل عبر شخصيته التائهة، والقلقة، والمخدولة، والمسكون بأوهامه ومرائه.

تبلورت صورة الشخصية الرئيسة في ذهن الكاتب على خلفيّة الأحداث التي شهدتها العراق في نصف القرن الأخير. فراح يبحث عن الجانب المظوم من شخصيته؛ فشخصيته تكاد تلخص نمط المثقف العراقي الذي خذل الواقع أحلامه فانتهى نهاية تراجيدية غريبة.

تعدّدت اختيارات القاصّ للمكان، فقد يكون المحلي/العراقي واقعيّاً، والغربي متخيلاً؛ وقد يكون مفتوحاً أو مغلقاً كما هو مكان ذاكرة، لكنّه متغيّر الملامح؛ وللقاصّ في كلّ اختيار مآرب شتى، وذلك لوعبه بأنّ المكان يؤثّر في النفوس فجعله موافقاً لمسيرة الشخصية وسيرتها.

تراوح توظيف الروائي للأمكنة بين المألوف والمعادي وفق نسق معيّن حتّى يخلق نوعاً من اللّحمة بينها وبين العناصر السردية الأخرى وتأخذ الأماكن المعادية الفضاء الأكبر، فكان للمدينة حضور متميّز في الرواية.

يدرك القارئ أنّ شخصية المرزوق هي الأكثر التصاقاً بالمكان وهي التي عانت كما عانى هو

وبشكل فظيع قبل الاحتلال وبعده؛ ويلتمس مدى مرارة هذه المعاناة عبر نظرة الشخصية للمكان، وهروهما، وتنقلها بين الأمكنة، إذ كان لها التأثير المباشر على مشاعره ونفسيته.

## المصادر

### الكتب العربية

- إبراهيم، عبد الله، (١٩٨٨م)، البناء الفني لرواية الحرب في العراق، ط ١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- باشلار، غاستون، (١٩٨٤م)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط ٢، بيروت: المؤسسة الجامعية.
- بحراوي، حسن، (١٩٩٠م)، بنية الشكل الروائي (الفضاء - الزمن - الشخصية)، ط ١، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- بوتور، ميشال، (١٩٨٦م)، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد انطونيوس، ط ٢، بيروت: منشورات عويدات.
- خالد عبدالله، عدنان، (١٩٨٦م)، النقد التطبيقي التحليلي، ط ١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- كحلوش، فتيحة، (٢٠٠٨م)، بلاغة المكان قراءة في مكانيّة النصّ الشعريّ، ط ١، بيروت: مؤسسة الانتشار العربيّ.
- مُجدّ رحيم، سعد، (٢٠١٧م)، مقتل بائع الكتب، ط ٢، بغداد: دار سطور.
- موير، إدوين، (١٩٦٥م)، بناء الرواية، لا ط، القاهرة: دار الجليل.
- ولسون، كولن، (١٩٧٢م)، الشعر والصوفيّة، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، ط ١، بيروت: دار الآداب.

### الرسائل والأطاريح

- جودي، مُجدّ، (٢٠١٢م)، شعريّة الشخصية والمكان الروائي في (عائد إلى حيفا) لغسان كنفاني (من البنية إلى الدلالة)، مذكرة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الجزائر ٢.
- الحرّي، رحيم علي جمعة، (٢٠٠٣م)، المكان ودلالته في الرواية العراقية، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية الآداب.
- قارة، فلة. ليندة لكحل، (٢٠١١م)، بناء الشخصية والمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، رسالة ماجستير، الجزائر - جامعة منتوري، كلية الآداب.

### الدوريات

- شريف، عكازي، (٢٠١٣م)، «طبيعة التلازم بين الشخصية الروائية والحيّز المكاني، رواية التبر لإبراهيم الكوني أمودجاً»، مجلة مقاليد، العدد ٥٥، صص ٩-١٩.

---

الشخصية السيرية وعلاقتها بالمكان المتغير في «مقتل بائع الكتب» لسعد محمد رحيم

كريم أميري، محمد جواد پورعابد

صائب خضير، سلافة، (٢٠٠٦م)، «أثر المكان في تحديد ملامح شخصية البطل في رواية (الطريق) لنجيب محفوظ و (الطريق) لعبد الحلیم ابراهيم (دراسة موازنة)»، مجلة كلية اللغات، جامعة بغداد، العدد ١٥، من ص ١٤ - ٢٦.

### المواقع الإلكترونية

غريب، أسماء، (٢٠١٧م)، «السَّمَاءُ إلى بعقوبة أقرب، قراءة في رواية (مقتل بائع الكتب) لسعد محمد رحيم»، موقع الناقد العراقي.

(2017/05/20 <http://www.alnaked - aliraqi.net/article/42187.php>).

## شخصیت سیره‌ای و رابطه آن با مکان متغیر در رمان «مقتل بائع الكتب» اثر سعد محمدرحیم

کریم امیری<sup>۱</sup>، محمدجواد پورعابد<sup>۲\*</sup>

۱. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج فارس بوشهر

۲. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خلیج فارس بوشهر

### چکیده

رمان‌های عراقی منتشرشده پس از ۲۰۰۳م از فضایی بهره‌مند شدند که به چالش‌های ناشی از پیدایش انواع خشونت از قبیل کشتن آدم‌ها بر اساس قومیت می‌پردازد. بر این اساس رمان‌نویس عراقی، سعد محمدرحیم، شاهکار خود «مقتل بائع الكتب» (داستان کشتن کتاب‌فروش) را به صحنه آورد، و به دو عنصر شخصیت و مکان در آن جایگاهی برجسته بخشید و میان آن دو رابطه هم‌آوایی پیوسته برقرار نمود تا رمانش بتواند بسان یک تابلوی پانورامایی قشری از عراق پس از تغییر و گوشه‌ای از رنج‌های انسان و مکان ناشی از ره‌آورد اشغال را بازنمایی کند.

پژوهش حاضر با استفاده از روش توصیفی - تحلیلی می‌کوشد بر شخصیت اصلی این رمان تمرکز نماید تا از ظرافت‌های هنری به‌کاررفته در پردازش و گره زدن آن به مکان متغیر پرده بردارد. چون شرح حال وی بخش عمده رمان را تشکیل می‌دهد، سیره‌ای نام گرفت. مکان نیز متغیر نامیده شد؛ زیرا شرایط حاضر بر آن تأثیر گذاشته و چهره‌اش را تغییر داده‌است.

بررسی نشان می‌دهد که رمان‌نویس برای پردازش شخصیت جنجالی «محمود المرزوق» و گره زدن آن به مکان از تکنیک‌های هنری بهره می‌گیرد، المرزوق شخصیت اصلی و همه‌جانبه رمان است که در مکان‌های متغیر به‌ویژه (باز/ بسته) حاضر می‌شود، با آن‌ها رابطه برقرار می‌کند، به‌طور تکامل‌یافته با آن‌ها حاضر و همراه می‌گردد، و با تغییر شمایل آن‌ها خود نیز دگرگون می‌شود.

**کلیدواژه‌ها:** رمان، شخصیت سیره‌ای، مکان، مقتل بائع الكتب، سعد محمدرحیم.